﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: 81 - 82]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لا شُبْهَةَ في إنْكارِ البَعْثِ إلّا التَّشَبُّثُ بعدم إعمال العقل

لمّا بيَّن الله تعالى أنَّهم منكرون للبعثِ وأنَّهم مقيمون على إنكارِهم مع ظهور الآيات والدّلائل بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّهُ لا شُبْهَةَ لَهُمْ في إنْكارِ البَعْثِ إلّا التَّشَبُّثُ بِحَبْلِ التَّقْليدِ المَبْنيِّ عَلَى مُجَرَّدِ الاسْتِبْعادِ[1].

وأيضًا لمّا أوْضَحَ الله ﷻ القَولَ في دَلائِلِ التَّوْحيدِ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ المَعادِ[2]، للإشعار بأنَّ الإيمان بالبعثِ من أصول الإيمان التي لا يجوز إنكارُها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السّابقونَ واللّاحقونَ مُنكِرونَ للبَعْث

يقولُ اللهُ ﷻ: إنَّ الكُفّارَ يَستبعِدونَ وقوعَ البعثِ بعد صَيْرورتِهم إلى البِلَى، كما هو نَهْجُ مَنْ كانَ قبلَهم مِنَ المكذِّبين[3]، إذ كانوا يردِّدون هذه الشُّبهة الواهية وهي قولهم: كيف يُبْعَثُ الأموات بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا وترابًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

التّقليد والمتابعة من غير بصيرة سبب في اعتقاد الباطل

لمّا بيَّن الله تعالى أنَّ الكافرين لايعقلون وأنكر عليهم عدم إعمالِ عقولِهم في الآيات والأدلَّة الواضحة الباهرة جاءت الآية على طريق الفصل لتكون تأكيدًا للإنكار على عدم استعمال عقولِهم، وتقريرًا له بسبب تقليدِهم لمن سبقهم ومتابعتِهم لهم في إنكارِهم البعثَ، كما أنَّ مجيء ﴿بَلْ﴾ في صدر الآية الدالَّة على الإضراب كما يأتي لا يناسبه سوى الفصل في الآية.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 585.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.

دلالة ﴿بَلْ﴾:

ظـهـور دلائـل التّوحيد تستلزم الاعتبار والإنابة والـخـضـوع لله رب العالمين

بل للإضراب الإبطالي، إبْطالًا لِكَوْنِهِمْ يَعْقِلونَ وتقريرًا للاستفهام الإنكاري في قوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ولمّا أبطل كونَهم يعقلون أفاد بلازمِه إثْباتَ إنكارِهم البعث، لأنَّه أنكرَ عليهم عدم إعمالِ عقولِهم لإنْكارِهِم البعثَ، أو يقال: إنَّه لمّا كان ذكر دلائل التّوحيد والنّعم الظّاهرة يقتضي الاعتبار والإنابة والخضوع، أضرب عن ذلك، ليفيد أنَّهم لم يفعلوا ذلك، والإضراب عنه يستلزم فعل نقيضه وهو إنكارهم البعث واستمرارهم على الكفرِ والشّرك باللّه تعالى[1].

دلالة الإضراب في ﴿بَلْ﴾:

حـذف المعطوف عليه لاستغراق المعنى وعمومِه

لمّا كان حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾ يقتضي مضربًا عنه كان الكلام من قبيل الإضراب على مضمرٍ يقتضيهِ المقامُ ويدلُّ عليه السّياق، ولمّا كانت ﴿بَلْ﴾ تقتضي أن يكون المضرب عنه منفيًّا كان التّقدير: (فلم يعقلوا أو فلم يعتبروا أو فلم ينظروا في الآياتِ بل قالوا)[2]، فيكون حذف المضرب عنه لاستغراق المعاني المذكورة، ونكتة حذف المضرب عنه بيان أنَّ عادتَهم وحالَهم هو عدم الاعتبار وعدم النّظر في الآيات، فلا فائدة من التّصريح به مع العلم به من قرينة السّياق.

مناسبة مجيء قوله ﴿قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

توبيخُ من يتّبع مـن سبقه من غير دليل سوى السّبق

لمّا كانت ﴿بَلْ﴾ التي للإبطال تفيد إبطال المعنى الذي قبلها والرَّدَّ عليه بما بعدها بيَّن السّببَ الذي بعثَهم على إنكار البعثِ وسبب نفي العقل عنهم، وهوَ تَقْليد الآباء ومتابعة الأوّلين من غيرِ هدىً، والمَعْنَى: أنَّهُمْ لا يَعْقِلونَ الأدِلَّةَ لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعونَ أقْوالَ آبائِهِمْ[3]،

(1) ابن عجيبة، تفسير ابن عجيبة: 3/ 213.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580، والعليمي، فتح الرحمن: 4/ 485، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

وفيه توبيخٌ لمن يقول قولًا من غيرِ هدى، ولمن يتّبع من سبقه من غير دليل سوى السّبق.

بديع الإدماج في الآية:

ليس للكافرين حجة غير تقليد الأولين

لمّا كان السّياق في بيان إشراكِهم باللّه تعالى وذكر دلائل التّوحيد وتفرُّد اللّه تعالى بالعبودية أدمج في قولِه ﴿قَالُوٓاْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أصلًا آخرَ من أصول الشّركِ، وهو إنكارُ البعثِ بعدَ الموتِ وإحالته[1]، فأنكر عليهم في جملة واحدةٍ أمرين مع بيان سبب إنكارِهم البعث ونفي العقل عنهم كما تقدَّم.

بلاغة الكناية في الآية:

التّقليد في الباطل لا يكون عذرا عند الله تعالى

لمّا أخبر اللّه تعالى عن قولِهم الذي قالوه وعن تقليدِهم الأعمى لمن سبقهم مع وضوح الآيات والحجج أفاد بلازمه أنَّهم لم يعتبروا بآياتِه ولم يتفكَّروا فيها ولم يتدبَّروا في الحجج الدّالَّةِ على قدرتِه على فعلِ كلِّ ما يشاء ولم يعقلوا الأدلَّة مع وضوحِها ولم يشكروا النّعم الظّاهرة.

مناسبة الالتفات في الآية:

التّعجيب من تفاهة عقول الكافرين لإنكارِهم البعث وإحالته

لمّا كانت الآيات السّابقة على وجه خطاب الكافرين وجرت هذه الآية على وجه الغيبة في قولِه ﴿قَالُوٓاْ﴾ كان الكلام على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومناسبتُه هو أنَّه في الخطاب كان على التّقريعِ والتّوبيخ والتّهديد، وهو المناسبُ لشدَّة التّخويف، فلمّا حكى ضلالاتِهم ناسبه مجيء الكلام على وجه الغيبة لما في الغيبة من معنى الإبعاد والغضب[2]، كما أنَّ في الالتفات تنبيهًا للسّامعين وليكونوا أكثرَ إيقاظًا وإصغاءً إلى بيان سببِ إشراكِهم باللّه وإنكارِهم البعثَ، ولمّا كان السّبب دالًّا على تفاهةِ عقولِهم اقتضى التّعجيب من قولِهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

دلالة الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

القَوْلُ هُنا يراد به اللَّفظ المطابق للاعتقاد، لِأَنَّ الأَصْلَ في الكَلامِ مُطابَقَةُ اعْتِقادِ قائِلِه، فالمَعْنَى: بَل اعتقدوا مِثْلَ ما اعتقدَ الأَوَّلونَ[1]، أو يكون المراد أنَّهم لا يملكون شيئًا من الحجج في إنكار الدّلائل والبراهين غير الأقوال بأفواههم مع استيقان أنفسهم بالحقِّ المبين.

القول هنا بمعنى اللفظ المطابق للاعتقاد

نكتة التّعبير بلفظ القول:

نكتة التّعبير بالقول في ﴿قَالُواْ﴾ دون الظّنِّ أو الاعتقاد الإشعارُ بقبحِ فعلِهم وأنَّهم ماكانوا يكتفون باعتقادِهم الباطلِ بل كانوا يفصحون عنه ويتكلَّمون به، وأنَّهم كانوا يرغبون في ترويج باطلِهم ونشره من دون استحياء منهم، عنادًا وتكبُّرًا.

ترويج الباطل ونشره من رغبات الكافرين

سبب إيثار التّعبير بالضّمير في قولِه ﴿قَالُواْ﴾:

جاء التّعبير بالضّمير دون الاسم الظّاهر ليكون الكلام على مقتضى الظّاهر، فيعود الضّمير في ﴿قَالُواْ﴾ إلى المخاطبين في الآيات السّابقة بما اتّصفوا به، أي بل قال الذين أشركوا ولم يشكروا وأنكروا البعث ولم يعقلوا، فيكون عود الضّمير دالًّا على سفاهةِ قولِهم وبطلانِه، أي إنَّ التّعبير بالضّمير تضمّن الدَّليل على بطلانِ قولِهم، وهذا من براعة التّعبير القرآنيِّ وبلاغتِه.

عُبِّرَ بالضّمير دون الاسم الظّاهر للاستدلال به على بطلانِ قولِهم

والضَّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ راجعٌ لِأهلِ مكَّةَ، ويدخل فيه مَنْ جَرَى مَجْراهُمْ في إنْكارِ البَعثِ[2]، ليدلَّ على العمومِ، فيفيد الإنكار على كلِّ من يقول مثل هذا القول.

الكافرون سلكوا في التّكذيب مسلكَ سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفِهم

نكتة التّعبير بالمثل:

عبّرَ بالمِثْلِ في قولِه ﴿قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لأنَّ الشّيءَ لا يكون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580.

مثل شيءٍ في الحَقيقَة إلّا إذا أشبهه من جَميع الوُجوه لذاته[1]، ليفيد أنَّ قولَهم مثلُ قولِ الأوّلين، فلم يخالفوه ولو في جزءٍ منه، إشعارًا بتشبّثِهم بقول الأوّلين بذاتِه وجميع أوصافِه أي في كيفيَّة القولِ وكميَّتِه وقدْرِه، ففيه تقريرٌ لإنكارِ إعمالِهم عقولَهم وتسفيهها حتَّى إنَّهم لم يغيّروا في قولهم أيَّ وصف من أوصاف قول الأوَّلين، والمعنى أنَّهم سلكوا في التَّكذيب مسلكَ سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفِهم[2].

بلاغة التّعبير بالموصول وصلته:

الـكـافـرون لم يأتوا بجديد في إنكار البعثِ

عبّر بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ المفيد للإبهام والعموم في قولِه ﴿مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم تابعوا أقوال الأوّلين كلَّها، ولمّا كانت صلة الموصول ﴿قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ معلومةَ الانتساب إلى مشارٍ إليه أفادَت أنَّ قولَ آبائِهم الأوّلين ومن دان بدينِهم من المشركين معلومٌ عند المخاطبين معروف بينهم، فلم يأتوا بأمرٍ جديد.

فائدة حذف العائد:

العائد في قوله ﴿مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ محذوف، والتقدير: (مثل ما قاله الأوَّلون)، ونكتة الحذف مناسبته للإبهام والعموم الذي في ﴿مَا﴾، مع ظهور معناه.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

الإنكار على من لـم يستعمل عـقـلـه ويـقـلِّـد بغير بيِّنة

لم يقل: (مثل ما قال آباؤهم)، ليفيد اللفظُ العمومَ في الفاعل، بمعنى مثل ما قال آباؤهم ومن دان بدينِهم من الأوّلين، كما أنَّ في التّعبير بـ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إشعارًا بأنَّهم كانوا يعتقدون امتناع مخالفتِهم لكونِهم سابقين لهم على جهة أنَّهم الأوّلون، فهم لا يُخالَفون، كما أنَّ تعليق قولهم على قول الأولين يؤذن بتوبيخِهم على عدم استعمال عقولِهم ومصادرتِهم لها من أجل أن يقولوا مثل قولِ الأوّلين واعتقادِهم.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 585.

مناسبة الفصل:

تواطؤ الكافرين وأسلافهم على إنكار البعث

جاءت هذه الآية ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ مفصولةً عن التي قبلها، وهي قوله تعالى ﴿قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ لأنَّ بين الجملتين كمالَ الاتّصال، فالجملة الثانية بدل بعضٍ أو بدل الكل من الكل أو عطف بيانٍ من الجملة الأولى لتفيد تفصيل الإجمال في المماثلةِ الوارد في الجملة الأولى، ومناسبة مجيء الجملة بدلًا هو أنَّه بالبدل والمبدل منه يحصل كمال الإيضاح والبيان للقولِ الذي قالوه مع بيان سبب قولِهم وتوبيخِهم على اتّباعِهم الأوّلين، كما أنَّه عبِّرَ بالبدل لأنَّ المقام يقتضي الاعتناء بشأنِ مضمون البدل وتفصيله، لنكتة تفظيع قولِهم وتعجيب المخاطب منه قصدًا لبيان غرابته وكونه أهلًا لأنْ ينكر إن ادُّعيَ نفيه، ويحتمل الفصل أن يكون على طريق الاستئناف البيانيِّ، فكأنَّ سائلًا سأل: وماذا قال الأوّلون فقال بيانًا له ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾[1].

دلالة ضمير الجماعة في قوله ﴿قَالُوٓاْ﴾:

إن كان الضّمير في ﴿قَالُوٓاْ﴾ الثّاني عائدًا إلَى ما عادَ إلَيْهِ ضَميرُ ﴿قَالُواْ﴾ الأوَّلُ كانت الجملة الثانية بدلًا من الجملة الأولى، وإن كان الضَّميرُ عائدًا إلَى ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ كانت الجملة استئنافًا بيانيًّا، والمعنى واحد على الوجهين.

بلاغة الاستفهام المجازي:

الغرض من الاستفهام الإنكار المتولّد منه الاستبعاد

جاء الاستفهام في قولِه ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ على طريق المجاز، فالغرض منه إنكارُ البعث بعد الموتِ والكونِ ترابًا وعظامًا، ويتولَّد من الإنكار استبعاد البعثِ وإحالته، ولمّا كان الإضراب في ﴿بَلۡ﴾ متوجِّهًا إلى البدل والمبدل منه أفاد أنَّ من يقول هذا القول لا يعقل ولا يتدبَّر الآيات والحجج الباهرة.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 267، والعصام الإسفراييني، الأطول: 2/ 20، والدُّسوقي، حاشية على شرح المختصر: 2/ 491، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.

فائدة التّعبير بالشّرط في قوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾:

عبِّرَ بأداة الشّرط (إذا) للإيذانِ بأنَّ موتهم وكونهم ترابا وعظاما مقطوع به عندهم، فجاء على طريق الجزم بالوقوع كما هو الظّاهر، لأنَّه ممّا لا ينكر ولا يشكُّ فيه، وأسلوب الشرط في قول الكافرين يدلُّ على إنكارهم للبعث مرةً أخرى؛ إذ أحالوا البعث في جواب الشرط مستدلّين على زعمهم الباطل بما ذكروه في جملة الشرط من فنائهم وصيرورتهم ترابا وعظاما.

من قلّة عقول الكافرين إيقانهم بالموت وإنكارُهم البعث بعده

دلالة صيغة الماضي في قوله ﴿مِتْنَا﴾ و﴿وَكُنَّا﴾:

جاء الفعلان ﴿مِتْنَا﴾ و﴿وَكُنَّا﴾ بصيغة الماضي على ما هو مقتضى الظّاهر، لإفادة (إذا) القطع بوقوع الشّرط، فناسب إيراد الفعل الماضي في الموضعين لكونِه مقطوعًا به في اعتقادِهم وفي الواقع.

فائدة الجمع بين الموت والتّراب والعظام:

الجَمْعُ بَيْنَ ذِكْرِ المَوْتِ والكَوْنِ تُرابًا وعِظامًا لِأمرين؛ أحدهما قَصْدُ تَقْوِيَةِ الإنْكارِ بِتَفْظِيعِ إخْبارِ القُرْآنِ بِوُقوعِ البَعْثِ، أي الإحياء بعد ذلك التّلاشي القويِّ الذي يكون بعد الموتِ، قصدًا للطّعن في القرآن وتكذيب الرَّسول ﷺ[1]، والثاني قصد تقوية استبعاد البعثِ والحياة الأخرى يوم القيامة، وموجبُ الاسْتِبْعادِ عندهم هوَ حُصولُ أحْوالٍ تُنافي أنَّهُمْ مَبْعوثونَ بالهيكل الإنسانيّ بِحَسَبِ قُصورِ عُقولِهِمْ، وهيَ حالُ المَوْتِ المُنافي لِلْحَياةِ، وحالُ الكَوْنِ تُرابًا وعِظامًا المُنافي لِإقامَةِ الهَيْكَلِ الإنْسانيِّ بَعْدَ ذَلِكَ[2].

محاولات الكافرين بائسة في الطّعن في حقائق القرآن

سرُّ تقديم التّراب على العظام:

قُدِّم ذكرُ التّراب على العظام التي يقصد بها العظام البالية المجرَّدة من اللحوم والأعصاب مع أنَّ الكون ترابًا يكون بعد الكون

لو تأمّل الكافرون أنَّ أصلَهم من تراب لَما أنكروا البعث بعد كونِهم ترابًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 53.

عظامًا؛ لأنَّه أدخل في التّكذيب بالبعثِ والحياة الأخرى، ولعراقته في الاستبعادِ وانقلابِه من الأجزاءِ البادية؛ لبعد التّراب عن صلته بالحياة الدنيا التي هم عليها، وأمّا العظام فإنَّها وإن نُخرَت وتفتَّت فإنَّ فيها آثارًا ممّا كانت عليه قبل الموت، فبدأ بالأبعد فالأبعد، فكونهم ترابا أبعد من أن يبعثوا من كونِهم عظاما، كما أنَّ في ذكرِ التّراب تعجيبًا لإنكارِهم واستبعادِهم، للإشعارِ بأنَّهم لم يتأمّلوا أنَّهم كانوا قبل ذلك أيضًا ترابًا فخلقوا[1].

دلالة التّنكير في ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾:

الخالق من عدم قادر على البعث من عدم

أفاد التّنكير في ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ التّحقير المبرّر عندهم لإنكار البعثِ واستبعادِه، فكيف يكون البعث والإحياء مرة أخرى من أشياء حقيرة منافية لحقيقة الإنسان، فبين حقيقة الإنسان الجسديَّة والهيكليَّة من اللَّحم والدَّم والتَّكوين وبين التُّراب والعظام بون واسع، فلا يكون هذا من ذاك في زعمهم الكاذب.

توجيه المتشابه اللفظي:

ذكر التّراب والعظام في سياق إنكار البعثِ وذكر العظام والرّفات في سياق ذكر الموت

قال الله تعالى ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: 49]، وقال في سورة المؤمنون ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقال ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 53]، فما هو سبب ذكر الرّفات في آية الإسراء، والتّرابِ في آيتي المؤمنون والصافات وغيرِهما؟ والجواب: أنَّ التُّراب والعظام أدلُّ على البِلَى من العظامِ والرُّفاتِ، فالرّفاتُ هو ما تكسَّر وتفرَّق من العظام، فهو حطام العظم المتكسّر، وهو الحالة التي يكون عليها العظم قبل التّراب، فإذا بلِيَ الرّفات صار ترابًا، فبعثُ التّراب والعظام أشدُّ إنكارًا واستبعادًا عند الكافرين

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 134، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 170، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.

من بعث العظام والرّفات، وأمّا في آية سورة الإسراء فلم يأت في سياقها التّصريح بإنكارِهم البعث، ولم يذكر من قولهم في الإنكار سوى تين الآيتين، فلم يقولوا بعدهما ولا قبلها شيئًا يتعلّق بإنكار البعث واستبعادِه، وأمّا إذا ذكر التّراب والعظام كما في آية المؤمنون فإنَّه يذكر من إنكارِهم واستبعادِهم البعثَ ما لم يذكره في العظام والرّفات، كما في قوله تعالى﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ *هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ [المؤمنون: 35 - 37]، ومثله في سورة الصافات ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 51 - 53]، ويدلُّك على هذا أيضاً أنَّه حيث ذكر التراب والعظام أضافوا إلى ذلك ذكر الموت فيقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [الصافات: 53] وذلك للزيادة في العجب والاستبعاد، فالميت لا يحيا وإن كان حديث الموت، فكيف إذا أصبح ترابًا وعظامًا؟! ولم يذكر مثل ذلك مع العظام والرفات، فذكر الموت مع التراب والعظام فيه جانبان: جانب الزيادة في العجب والاستبعاد، وجانب الإفاضة والتوسع في دواعي الاستبعاد والإنكار، مما يدعو إلى الإفاضة في ذكر الإنكار والعجب، بخلاف ذكر العظام والرفات وعدم ذكر الموت فإنه أوجز في الكلام، وأوجز في ذكر العجب والاستبعاد، والخلاصة أنَّه لمّا صرِّحَ بالإنكار ذكر ما يناسبه وهو التّراب ولمّا لم يصرَّح بالإنكار ذكر ما يناسبه وهو الرّفات[1].

بلاغة الاستفهام المجازي وتكريره:

الاستفهام في قوله ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مجازيٌّ كذلك، على معنى إنكار وقوعِ البعث واستبعادِه، فيكون تأكيدًا للأوّل واستبعادًا بعد

جحود الكافرين ليس مثله جحود

(1) فاضل السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم: 1/ 117 - 118.

استبعادٍ، ونكتة تكريرِه النّصُّ على موضعِ إنكارِهم، للإيذانِ بأنَّهم مغرقون في إنكارِ البعثِ واستبعادِه.

سبب إيثار تتابع التّأكيد بـ(إنَّ) واللّام:

استفظاع الكافرين مايحكيه رسول الله ﷺ إيغال في التّكذيب

عبِّرَ بحرف التّوكيد (إنَّ) واللّام في قوله ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المؤكِّدة لأنَّ المقصود حكايةُ الكافرين لدعوى البعثِ التي يدّعيها الرّسول ﷺ بتحقيقٍ وتوكيدٍ، مع كونِها شديدةَ الاستحالةِ، للإشعار بأنّهم يستفظعون ما يدّعيه الرّسول ﷺ باعتبار أنَّه لا يمكن أن يقع، ففي حِكايَةِ تَوْكيدِ مُدَّعيها زيادَةٌ في تَفْظيعِ الدَّعْوَى في وهْمِهِمْ[1]، فهم لا يكتفون باستحالة البعث بل يزيدون على الأمر تفظيع تأكيد الرّسول ﷺ دعوى البعثِ والإعادة إلى الحياة يوم القيامة.

توجيه المتشابه اللفظي:

مجيء كلّ لفظ مناسبًا لسياقِه وسباقِه

قال الله تعالى﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقال فيما بعد: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 51 - 53]، للسائل أن يسأل عن قوله أولاً: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وثانياً: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 53] لم اختلفا مع أنَّ مرادهم في الموضوعين إنكار البعث بعد الموت؟ والجواب: أنَّ آيةَ سورة المؤمنون جاءت على الأصل في إنكارِهم البعث، فلم يتقدمها شيء يوجب عدولهم عن التعبير عن معتقداتهم في إنكار الإحياء بعد الموت فورد اللفظ على ما يطابق معتقدهم، فهو حكاية كلام الكافرين المنكرين للبعثِ، وأما آية الصّافات، ففيها قَول أحد الفَريقَيْنِ لصاحبه عِنْد وُقوع الحساب والجَزاء، وقد تمهَّد قبلها ذكر الجزاء الأخروي وذكر السؤال، في قوله ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: 24] وقوله تعالى بعد ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات: 39]، وقوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.

عند سؤالِهم في الآخرة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: 27]، وقول الكافر عند مباشرة العذاب: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ﴾ [الصافات: 51 - 52]، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول لقرينه في دنياه: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 52 - 53] وفي طيِّ قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 53] إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه ويترتب بعده من الجزاء، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكرين وقوعه، ولم يكن ليحسن وقوع ﴿لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 53] في آية المؤمنون لأنَّه سيكون غير مفصح عن إنكار الكافرين البعث ولا ورد قبله ما يستدعيه، فجاء كلٌّ على ما يجب ويناسبه[1].

توجيه القراءات القرآنية وبلاغتها:

قَرَأَ ابْنُ عامرٍ وأبو جَعْفَرٍ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بِهَمْزَةٍ واحِدَةٍ عَلَى صورَةِ الخَبَرِ، أي بِالإِخْبارِ في الأَوَّلِ والاِسْتِفْهامِ في الثّاني في قوله ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ فيُكتفى بالاستفهام في الجواب عن الشّرط، ويكون دالًّا عليه، وقَرَأَ نافِعٌ والكِسائيُّ ويَعْقوبُ بِالاِسْتِفْهامِ في الأَوَّلِ، والإِخْبارِ في الثّاني، ووُجودُ هَمْزَةِ الاِسْتِفْهامِ داخِلَةً عَلَى الشَّرْطِ كافٍ في إفادَةِ الاِسْتِفْهامِ عَنْ جَوابِهِ، وقرأ ابنُ كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزةُ بالاستفهام في الموضعين، أي في قوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ وقولِه ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، ليكون الاستفهام في الجوابِ تأكيدًا للاستفهام في الشّرط[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المِثْل والشَّبيه والنِّدّ والمساوي والشّكل:

الفرق بينها أنَّ الشَّيْء يُشبَّهُ بالشَّيْء من وجه واحِد لا يكون مثلَه

المثل أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة والشِّبهُ يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 212، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 410.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/ 373.

في الحَقيقَة إلّا إذا أشبهه من جَميع الوُجوه لذاته، ويعرف معنى المِثلِ بمعرفة معنى ما يقاربُه وما يضادُّه، فالمِثْلُ أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والنّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمّيّة فقط، والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمِثْلُ عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفي التّشبيه من كلّ وجه خصّ المثلَ بالذّكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11][1]، فالمثل: شيء يسدُّ مسدَّ غيره في الإدراك؛ حتَّى لو شوهد لم يفرَّقْ بينه وبينه، كما لا يفرَّقُ بين سوادين يسدُّ كلُّ واحد منهما مسدَّ الآخر في الرؤية، فلمّا قال ﴿قَالُوٓاْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أفادَ أنَّ قول كفّار مكَّة: مثل قول الأولين؛ في إنكار البعث بعد الموت بحيث لو سُمِعَ قولُ الأوّلين لم يفرّق بينه وبين قول كفّار قريش[2].

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156، والراغب، المفردات: (مثل).
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 91.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»